

الاختلاف

عناصر الموضوع

٥٢	مفهوم الاختلاف
٥٣	الاختلاف في الاستعمال القرآني
٥٤	الألفاظ ذات الصلة
٥٦	الاختلاف سنة الله تعالى في الخلق
٥٧	أنواع الاختلاف
٦٠	أسباب الاختلاف
٦٤	آثار الاختلاف
٦٦	وسائل رفع الاختلاف

مفهوم الاختلاف

أولاً: المعنى اللغوي:

كلمة (اختلاف) تعد مصدرًا من الفعل (اختلف)، وهذا الفعل من الناحية الصرفية فعل يدل على التفاعل والمشاركة، أي: لا يكون إلا بين اثنين فأكثر. قال صاحب القاموس: «والخلاف: المخالفة... واختلف: ضد اتفق»^(١)، أي: «لم يتفق في الرأي، يقال: اختلف بين كذا وكذا»^(٢). وذكر الزبيدي أن «الخلفة، بالكسر: الاسم من الاختلاف، أي: خلاف الاتفاق، أو مصدر الاختلاف، أي: التردد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَلَّلَ لَيْلَ وَأَلْتَهَارَ خَلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢]»^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

الاختلاف في الاصطلاح لا يختلف عن المعنى اللغوي، «فالاختلاف والمخالفة - في الاصطلاح - أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعم من الضد؛ لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين»^(٤). وقال المناوي: «الاختلاف: افتعال من الخلاف، وهو تقابل بين رأيين فيما ينبغي انفراد الرأي فيه، ذكره الحرالي»^(٥).

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٨٠٨.

(٢) تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دوزي ٤ / ١٧٨.

(٣) تاج العروس، الزبيدي ٢٣ / ٢٥١.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٩٤.

(٥) التوقيف، المناوي ص ٤١.

الاختلاف في الاستعمال القرآني

ورد (الاختلاف) في القرآن الكريم (٥٢) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٩	﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]
الفعل المضارع	١٦	﴿لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩]
المصدر	٧	﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠]
اسم الفاعل	١٠	﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]

وجاء الاختلاف في القرآن بمعناه في اللغة، وهو: ضد اتفق، وهو أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الأول في فعله أو حاله^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٣٩، ٢٤١.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٩٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ التفرق:

التفرق لغةً:

خلاف التجمع، تفرق القوم وتفارقوا، والاسم الفرقة^(١).
والتفريق: خلاف التجميع، يقال: فرق الشيء تفريقاً وتفرقة: بدده، وهو متعد، أما التفرق
فلازم. والتفريق أبلغ من الفرق؛ لما فيه من معنى التكثير^(٢).

التفرق اصطلاحاً:

لا يخرج معناه عن المعنى اللغوي.

الصلة بين التفرق والاختلاف:

التفرق هو أشد أنواع الاختلاف، وثمره من ثماره النكرة؛ لأن من الاختلاف ما لا يصل
إلى حد الافتراق، وهو أكثر أنواع الخلاف بين الأمة.

٢ المنازعة:

المنازعة لغةً:

المنازعة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (نزع)، وتأتي بمعنى الجذب؛ يقال: نزع
القوس إذا جذبها، ومنه نزع الإنسان إلى أهله، ومنه تنازع القوم اختصموا وبينهم نزاعة أي:
خصومة في حق، ومنه قوة العزيمة في الرأي والهمة؛ يقال للرجل الجيد الرأي: إنه لجيد
المنزعة، ومنه القلع؛ يقال: نزعت الشيء من مكانه نزعاً إذا اقتلعت^(٣).

المنازعة اصطلاحاً:

المخاصمة والمخالفة القائمة على التنازع والتجادب لنفي ما عند الآخر ومحوه، سواء
أكان حقاً أم باطلاً، والموصلة في الغالب إلى الفشل والانتكاس^(٤).

الصلة بين المنازعة والاختلاف:

الاختلاف لا يحمل معنى المنازعة، فقد يحصل الاختلاف ولا تحصل المنازعة، أما
المنازعة فهي اختلاف مع معاداة ومخاصمة.

(١) المخصص، ابن سيده ٣ / ٣٦٠.

(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٩١٨.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥ / ٣٣٢، لسان العرب، ابن منظور ٨ / ٣٤٩ - ٣٥١.

(٤) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ٦ / ١١٣.

٣ الاجتماع:

الاجتماع لغة:

التحام الشيء، وضم بعضه إلى بعض، وهو خلاف التفريق^(١).

الاجتماع اصطلاحاً:

هو اجتماع الناس، وعدم تفرقهم، واجتماع القلوب بائثلافها، وعدم تفرقها.

الصلة بين الاجتماع والاختلاف:

الاختلاف السائق بين المسلمين يمكن أن يحصل معه الاجتماع، ولا يكون سبباً في تفرقهم، وأما إذا كان ذلك مؤدياً إلى تفرقهم وتمزق وحدتهم وعدم اجتماعهم فإنه بذلك يكون مذموماً.

٤ الاعتصام:

الاعتصام لغة:

العصم: الإمساك، والاعتصام: الاستمسك.

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أي: تمسكوا بعهد الله^(٢).

والاعتصام بحبل الله: هو ترك الفرقة، واتباع القرآن^(٣).

الاعتصام اصطلاحاً:

لا يختلف معنى الاعتصام في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

الصلة بين الاعتصام والاختلاف:

الاعتصام: الاستمسك بالشيء، افتعالاً منه، والمقصود الاستمسك بحبل الله، وهو بهذا الاعتبار وسيلة للاجتماع، وطريق إليه؛ ولهذا يقال: الاستمسك بحبل الله سبب للاجتماع، وعصمة من الخلاف والتفرق.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٧٩، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٥٣.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٤١٨، تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٢٠٥.

(٣) المفردات، الراغب ص ٥٦٩، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٣٥.

الاختلاف سنة الله تعالى في الخلق

إن الاختلاف سنة إلهية بين جميع المخلوقات! ليس البشر وحدهم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرَهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقال عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنِ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنِ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ [النور: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِينَ وَالْوَنُكُرَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ [الروم: ٢٢].

وعن الاختلاف العلمي والفكري يقول رب العزة: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

«ولا شك أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات وغير ذلك: فيه الدلالة القاطعة على أن الله -جل

وعلا- واحد، لا شبيه له ولا نظير ولا شريك، وأنه المعبود وحده.

وفيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير فهو بقدره وإرادة الفاعل المختار -سبحانه-، وأن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته -جل وعلا-، كما أوضح ذلك في قوله: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعَ مُتَجَوِّرَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعَ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنَفِضٍ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْمَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ [الرعد: ٤].

فالأرض التي تثبت فيها الثمار واحدة؛ لأن قطعها متجاورة، والماء الذي تسقى به ماء واحد، والثمار تخرج متفاضلة، مختلفة في الألوان والأشكال والطعوم، والمقادير والمنافع.

فهذا أعظم برهان قاطع على وجود فاعل مختار، يفعل ما يشاء كيف يشاء، سبحانه جل وعلا عن الشركاء والأنداد»^(١).

وحكمة أخرى لهذا الاختلاف في الخلق؛ أشار لها أئمة لأبي بن كعب رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: (ورفع عليهم

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢ / ٣٤٢.

أنواع الاختلاف

«قضت مشيئة الله تعالى خلق الناس بعقول ومدارك متباينة، إلى جانب اختلاف الألسنة والألوان والتصورات والأفكار، وكل تلك الأمور تفضي إلى تعدد الآراء والأحكام، وتختلف باختلاف قائلها، وإذا كان اختلاف ألسنتنا وألواننا ومظاهر خلقنا آية من آيات الله تعالى؛ فإن اختلاف مداركنا وعقولنا وما تثمره تلك المدارك والعقول آية من آيات الله تعالى كذلك، ودليل من أدلة قدرته البالغة»^(٢)، لكن هذا الاختلاف ليس على درجة واحدة، بل منه المحمود ومنه المذموم، وهذا ما سنوضحه في هذا المبحث بعون الله تعالى.

أولاً: الاختلاف المحمود:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ ائْتَلَفُوا فِيهِمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فالاختلاف في هذه الآية لا نستطيع أن نقول: إنه شرُّ كله، أو مذموم بإطلاق! بل من خالف الكفار في كفرهم وضلالهم؛ فأمن بالله تعالى، وصدق رسله،

آدم عليه السلام فجعل ينظر إليهم فرأى الغني والفقير، وحسن الصورة ودون؛ ذلك فقال: رب لولا سويت بين عبادك! قال: إني أحببت أن أشكر^(١).

فالغني يرى الفقير ثم يشكر الله الذي أغناه، والصحيح يرى المريض ثم يشكر الله الذي عافاه، والمهتدي يرى الضال ثم يشكر الله الذي هداه.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢١٢٣٢.

وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٤٤.

(٢) أدب الاختلاف في الإسلام، طه العلواني ص ٢٤.

واستسلم لشريعته؛ فخالفه هذا ممدوح محمود محبوب لله تعالى، ومن خالف المؤمنين في إيمانهم بربهم وتصديقهم برسله واستسلامهم لشريعته؛ فخالفه هذا شر ووبال عليه في الدنيا والآخرة^(١).

قال الله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٣﴾

[البقرة: ٢١٣].

ولذا لما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتح صلواته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلواته: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق، فإنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(٢).

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ١/ ١٥٥، الصواعق المرسله، ابن القيم ٢/ ٥١٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة

وفي هذا السياق يقول ابن القيم رحمه الله: «فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان ومع من كان - ولو كان مع من يبغضه ويعاديه - ورد الباطل مع من كان - ولو كان مع من يحبه ويواليه - فهو ممن هدى لما اختلف فيه من الحق؛ فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلاً، وأقومهم قبلاً، وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا - أي: فيما بينهم - فاختلفاهم اختلاف رحمة وهدى، يقر بعضهم بعضاً عليه ويواليه ويناصره، وهو داخل في باب التعاون والتناظر الذي لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم؛ بالتناظر والتشاور، وإعمالهم الرأي وإجالتهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى درك الصواب»^(٣).

ثانياً: الاختلاف المذموم:

النوع الثاني من الاختلاف هو الذي «يكون المختلفون كلهم مذمومين، وهم الذين اختلفوا بالتأويل، وهم الذين نهانا الله سبحانه عن التشبه بهم في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وهم الذين تسود وجوههم يوم القيامة وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهَ نَزْلَ الْكِتَابِ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي

الليل وقيامه، رقم ٧٧٠.

(٣) الصواعق المرسله ٢/ ٥١٦ - ٥١٧.

أي: لا تختلفوا في التوحيد والإيمان بالله، وطاعة رسله وقبول شرائعه؛ فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع، وتوافقت فيها الأديان؛ فلا ينبغي الخلاف في مثلها^(٣). وقال الأمدي رحمه الله: «فيجب حمل ما ورد من ذم الاختلاف والنهي عنه: على الاختلاف في التوحيد والإيمان بالله ورسوله، والقيام بنصرته، وفيما المطلوب فيه القطع دون الظن...»^(٤).

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ما يشير لذلك.

قال الإمام الجصاص: «فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» يعني بالإسلام، وفي ذلك دليل على أن التفرق المذموم المنهي عنه في الآية هو في أصول الدين والإسلام لا في فروعه، والله أعلم^(٥).

ومما يلتحق بالصورة السابقة للخلاف المذموم: خلاف الخوارج والرافضة والمعتزلة والقرائين وغيرهم من أهل البدع لأهل السنة والحق؛ مما قد يصل في بعض صورته إلى الكفر والعياذ بالله. والمخالفون فيه خالفوا جمهور

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٠٧.

(٤) الأحكام في أصول الأحكام، الأمدي ٤/ ١٥.

(٥) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٣١٥.

الْكِتَابِ لِيُشَاقِقَ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ [البقرة: ١٧٦]. فجعل المختلفين كلهم في شقاق بعيد، وهذا النوع هو الذي وصف الله أهله بالبغي، وهو الذي يوجب الفرقة والاختلاف، وفساد ذات البين، ويوقع التحزب والتباين^(١).

وفي هذا المعنى يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بَعِيًا يَبِينُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: ٤].

قال الشافعي: «فإنما رأيت الله ذم الاختلاف في الموضوع الذي أقام عليهم الحجة ولم يأذن لهم فيه»^(٢).

ومن صور الخلاف المذموم في القرآن الكريم: مخالفة المسلمين في أصل إيمانهم وعقيدتهم في الله تعالى وأنبيائه ورسله وشرائعه ونحو ذلك؛ فمن فعل ذلك فهو داخل في هذا الاختلاف المذموم، قال الله تعالى: ﴿أَنْ أَيْمُوا الَّذِينَ وَلَا تَنفَرُقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

(١) المصدر السابق ٢/ ٥١٤.

(٢) جماع العلم، ص ٤٤.

أسباب الاختلاف

والمقصود بالاختلاف هنا، والذي سنبحث عن أسبابه في القرآن: هو اختلاف الأفكار والعقائد ونحوها - لا اختلاف الألسن والألوان ونحوها- ومن أعظم أسباب هذا الاختلاف هو:

أولاً: فساد النية:

وينطوي تحتها أمور، منها:

١. البغي.

قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَأَتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا يَبْتَغِيهِمْ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية: ١٦-١٧].

قال الزجاج: «أي للبغي، لم يختلفوا؛ لأنهم رأوا البصيرة والبرهان»^(٢).

وقال الله تعالى: ﴿﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا يَبْتَغِيهِمْ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: ١٣-١٤].

قاله تعالى «لما بين أنه أمر كل الأنبياء

المسلمين في أصول المسائل التي يقوم عليها المعتقد والأحكام، فأصولهم فاسدة، ومن ذلك: تقديم العقل على النقل، أو القول بعصمة الأولياء أو أئمة أهل البيت، أو ترك الاحتجاج بالسنة.

وهذا النوع هو الذي يؤدي إلى فرقة الأمة وتشذمها، وجاءت النصوص القرآنية والنبوية في التحذير منه، ومن ذلك: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٣٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴿١٣٩﴾﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

قال ابن عاشور: «إلا من رحم ربك: أي: فعصمهم من الاختلاف، وفهم من هذا: أن الاختلاف المذموم المحذر منه هو الاختلاف في أصول الدين الذي يترتب عليه اعتبار المخالف خارجاً عن الدين وإن كان يزعم أنه من متبعيه.

فإذا طرأ هذا الاختلاف وجب على الأمة قصمه، وبذل الوسع في إزالته من بينهم بكل وسيلة من وسائل الحق والعدل؛ بالإرشاد والمجادلة الحسنة والمناظرة.

فإن لم ينجح ذلك فبالقتال كما فعل أبو بكر في قتال العرب الذين جحدوا وجوب الزكاة، وكما فعل علي في قتال الحرورية الذين كفروا بالمسلمين، وهذه الآية تحذير شديد من ذلك الاختلاف»^(١).

(٢) معاني القرآن وإعراجه، الزجاج ١/ ٣٨٧.

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ١٨٩.

[المائدة: ٢٧-٣٠].

وفي قصة يوسف عليه السلام مع إخوته؛ حين قالوا بعدما حسدوه: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَيِّكُمْ﴾ [يوسف: ٩].
٣. اتباع الهوى.

قال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فانظر كيف جعلوا أهواءهم هي الفيصل والحكم، وخالفوا بها أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام «وإنما كانوا كذلك؛ لإرادتهم الرفعة في الدنيا، وطلبهم لذاتها، والثرووس على عامتهم، وأخذ أموالهم بغير حق، وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك؛ فيكذبونهم لأجل ذلك، ويوهمون عوامهم كونهم كاذبين! ويحتجون في ذلك بالتحريف وسوء التأويل، ومنهم من كان يستكبر على الأنبياء استكبار إبليس على آدم»^(٣).

وقال سبحانه لرسوله الكريم: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وكما حمل الحسد هؤلاء المكذبين من أهل الكتاب حتى خالفوا رسول الله والمؤمنين؛ فقد حمل الحسد كذلك مشركي العرب؛ حتى قالوا عن من آمن برسول الله من فقراء المسلمين: ﴿أَهْتَوَلَاءَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]!

«والحسد يكون أعظم ما يكون: إذا كان الحاسد يرى نفسه أولى بالنعمة المحسود عليها، فكان ذلك الداعي فتنة عظيمة في نفوس المشركين؛ إذ جمعت كبراً وعجباً وغروراً بما ليس فيهم، إلى احتقارٍ للأفاضل وحسدٍ لهم، وظلم لأصحاب الحق، وإذا حالت بينهم وبين الإيمان والانتفاع بالقرب من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم»^(١).

«واعلم أن الحسد ربما أفضى إلى التنازع والتقاتل»^(٢)؛ كما يظهر ذلك جلياً في قصة ابني آدم ﴿إِذْ قَرَّبْنَا بَارِقَاتٍ فَنَقَبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَنْقَبِلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢٧) ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾^(٢٨) ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾^(٢٩) ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾^(٣٠)

(١) التحرير والتنوير ٧ / ٢٥٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣ / ٦٤٨.

(٣) المصدر السابق ٣ / ٥٩٦.

ثانيًا: ترك الوحي:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

«قال الحسن: فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى، ﴿أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ﴾ في التوحيد والنبوة، ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بالأهواء المختلفة، والجدال في الدين، قال مجاهد وقتادة: يعني بين اليهود والنصارى، وقال قوم: هم النصارى وحدهم صاروا فرقا! منهم اليعقوبية والنسطورية والملكانية، وكل فرقة تكفر الأخرى»^(١).

«إن قيل: كيف أغريت بينهم العداوة وهم لم يزالوا إلبًا على المسلمين؟ فجوابه: أن العداوة ثابتة بينهم في الدين بانقسامهم فرقا، وذلك الانقسام يجر إليهم العداوة وخذل بعضهم بعضا، ثم إن دولهم كانت منقسمة ومتحاربة، ولم تزل كذلك، وإنما تألبوا في الحروب الصليبية على المسلمين، ثم لم يلبثوا أن تخاذلوا وتحاربوا، ولا يزال الأمر بينهم كذلك إلى الآن، وكم

ضاعت مساعي الساعين في جمعهم على كلمة واحدة، وتأليف اتحاد بينهم، وكان اختلافهم لطفًا بالمسلمين في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، على أن اتفاقهم على أمة أخرى لا ينافي تمكن العداوة فيما بينهم، وكفى بذلك عقابًا لهم على نسيانهم ما ذكروا به»^(٢)، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

ولا شك أن في آية ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾ تحذيرًا لهذه الأمة من سلوك مسلك أهل الكتاب في نسيان دين الله تعالى.

ثالثًا: اختلاف الأفهام:

ومن أسباب الاختلاف أيضًا: اختلاف أفهام الناس ومداركهم، ومما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾^(٣) ففهمتها سُلَيْمَانٌ وَكُلًّا ءَايَاتِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

«فمعنى قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أنه ألهمه وجهًا آخر في القضاء هو أرجح؛ لما تقتضيه صيغة التفهيم من شدة حصول الفعل أكثر من صيغة الإفهام، فدل على أن

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١٤٩.

آثار الاختلاف

لاشك أن للاختلاف آثارًا تنجم عنه، لكن وصف تلك الآثار يرجع إلى وصف ذلك الاختلاف؛ فإن اختلافًا محمودًا كانت آثاره كذلك، وإن كان اختلافًا مذمومًا كانت آثاره كذلك.

والذي يهمنا هنا: هو تسليط الضوء على آثار الاختلاف التي ذكرها القرآن الكريم، فنقول:

من الآثار التي ذكرها القرآن الكريم للاختلاف ما يلي:

أولاً: الفشل وذهاب الريح.

قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزَعُوا فَتَنَظَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحَكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وماذا بعد الفشل وذهاب الريح، إلا تسلط الأعداء على المسلمين وسومهم سوء العذاب! قال قتادة: «لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم»^(٣).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها: كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها»^(٤).

وقال ابن تيمية في موضع آخر: «وهذا التفرق الذي حصل من الأمة علمائها

فهم سليمان في القضية كان أعمق، وذلك أنه أرقق بهما، فكانت المسألة مما يتجاذبه دليان فيصار إلى الترجيح، والمرجحات لا تنحصر، وقد لا تبدو للمجتهد، والله تعالى أراد أن يظهر علم سليمان عند أبيه ليزداد سروره به، وليتعزى على من فقدته من أبنائه قبل ميلاد سليمان»^(١).

وممكن أن يضرب هذا النموذج في قصة داود وابنه سليمان عليهما السلام مثالاً على اختلاف الأفهام المحمودة؛ حيث إنه لم يحصل جراء اختلاف فهمهما شر بينهما أو نزاع.

قال ابن القيم رحمه الله: «ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه؛ لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم، ولكن المذموم: بغي بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله؛ لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية، ولكن إذا كان الأصل واحداً، والغاية المطلوبة واحدة، والطريق المسلوكة واحدة؛ لم يكد يقع اختلاف، وإن وقع كان اختلافًا لا يضر»^(٢).

(٣) الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٧٦.

(٤) الفتاوى الكبرى، ٢/ ١٠٩.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١١٨.

(٢) الصواعق المرسله، ابن القيم ٢/ ٥١٩.

كل طائفة بكتابتها؛ لأن الإنجيل يتضمن صدق موسى وتقرير التوراة، والتوراة تتضمن التبشير بعيسى وصحة نبوته، وكلاهما تضمن صدق محمد صلى الله عليه وسلم، فعنفهم الله تعالى على كذبهم، وفي كتبهم خلاف ما قالوا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ تنبيه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم على ملازمة القرآن والوقوف عند حدوده^(٢).

«أما قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإنه يقتضي أن من تقدم ذكره يجب أن يكون عالمًا لكي يصح هذا الفرق، فبين تعالى أنهم مع المعرفة والتلاوة إذا كانوا يختلفون هذا الاختلاف؛ فكيف حال من لا يعلم!»^(٣).

رابعًا: التفرق والتحزب.

قال تعالى: ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ^(٣٢) [الروم: ٣١-٣٢].

﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ جعلوه أديانًا مختلفة لاختلاف أهوائهم، ﴿وَكَانُوا شِبَعًا﴾ فرقًا كل واحدة تشايح إمامها الذي أضلها، ﴿كُلِّ حِزْبٍ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾

ومشايعها؛ وأمرائها وكبرائها؛ هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نُنصَرِيهِ أَخَذْنَا مِنْهُمُ آلِهَتَهُمْ فَسَبُّوا حَقًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به؛ وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب^(١).

ثانيًا: الشقاق.

قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾^(١٧٦) [البقرة: ١٧٦].

ثالثًا: إلغاء كل ما لدى الخصم من حق.

قال عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(١١٣) [البقرة: ١١٣].

قال ابن عطية: «وفي هذا من فعلهم كفر

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٩٨.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٠.

(١) مجموع الفتاوى، ٣/ ٤٢١.

وسائل رفع الاختلاف

الاختلاف الذي حذرنا الله تعالى منه في كتابه الكريم هو شرُّ كله، وكما أنه سبحانه قد نهانا عنه وحذرنا منه؛ فقد أرشدنا وهدانا إلى سبل اجتنابه والوقاية منه، و«من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأَنْفَال: ١].

ويقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وأما ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والاتلاف، وتنتهي عن الفرقة والاختلاف^(٣)، فإذا وقع الاختلاف فقد هدانا الله تعالى في كتابه الكريم إلى أمور نرفع به عنا الاختلاف والنزاع، منها:

أولاً: الاعتصام بحبل الله تعالى. قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا الأصل العظيم - وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً وأن لا يتفرق - هو من أعظم أصول

فرح بمذهبه مسرور بحسب باطله حقاً»^(١).
خامساً: العذاب العظيم في الآخرة. وسواد الوجه كذلك - والعياذ بالله -، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿[آل عمران: ١٠٥-١٠٦].

«يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ يا معشر الذين آمنوا ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ من أهل الكتاب، ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في دين الله وأمره ونهيه، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ من حجج الله فيما اختلفوا فيه، وعلموا الحق فيه؛ فتعمدوا خلافه! وخالفوا أمر الله، ونقضوا عهده وميثاقه جراءة على الله! ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ يعني: ولهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب من بعد ما جاءهم ﴿عَذَابٌ﴾ من عند الله ﴿عَظِيمٌ﴾، يقول جل ثناؤه: فلا تفرقوا يا معشر المؤمنين في دينكم تفرق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنوا في دينكم بسنتهم؛ فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الذي لهم»^(٢).

(١) مدارك التنزيل، النسفي ٢ / ٧٠٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧ / ٩٢.

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٢٨ / ٥١.

﴿وَلَا تَقْرَأُوا﴾ أيضاً قد فهم هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾! لكنه كذلك مزيداً من التوكيد والتأكيد والاهتمام بهذا الأمر الجليل.

ومن الآيات ذات الصلة بهذا الأمر: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِشُبَّانٍ هُنْدُ الْأَيْدِي أَخْلَفُوا فِيهِ وَهَدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

ونحوها من الآيات التي تبين أن الله تعالى أنزل كتابه وأرسل رسوله ليرجع الناس إليهما ويعتصموا بهما من الفرقة والاختلاف والتنازع.

ثانياً: الإصلاح.

قال الله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

والمعروف: هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ وهو: الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله

الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة وخاصة^(١).

وعندما يتأمل المسلم هذه الآية العظيمة يجد فيها مؤكدات كثيرة لوجوب الاعتصام بحبل الله تعالى، فتأمل معنا:

﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾ واو الجماعة هنا يعم كل المؤمنين الذين ناداهم الله في الآية السابقة لهذه الآية، ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ لا بشيء سواه، وسواء كان حبل الله هو القرآن أو الرسول أو الدين؛ فيبقى مفهومه: أن نترك أهواءنا وأطماعنا ومصالحنا الشخصية التي هي غير معصومة للشيء المعصوم، الذي هو القرآن أو الرسول أو الدين أو كل هذه الأمور، قال «عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الصراط محتضر؛ تحضره الشياطين، ينادون: يا عبد الله! هلم هذا الطريق! ليصدوا عن سبيل الله؛ فاعتصموا بحبل الله، فإن حبل الله هو كتاب الله»^(٢).

ثم قال سبحانه: ﴿جَمِيعًا﴾! مع أنه قد فهم معنى العموم من ضمير الجماعة في قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾! لكنه التوكيد والتأكيد على هذا الأمر العظيم.

(١) المصدر السابق ٢٢ / ٣٥٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٧ / ٧٢.

سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي
إِلَى اللَّهِ ﴿[المجادلة: ١].﴾

بل ذكر الله تعالى عن قوم نوح عليه
السلام أنهم: ﴿قَالُوا يَبْنُوهُ قَدْ جَدَلْتَنَا
فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ [هود: ٣٢]!

لذا قال الشوكاني رحمه الله: «فأما
الجدال لاستيضاح الحق، ورفع اللبس،
والبحث عن الراجح والمرجوح، وعن
المحكم والمشابه، ودفع ما يتعلق به
المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم
بالجدال إلى المحكم؛ فهو من أعظم ما
يتقرب المتقربون، وبذلك أخذ الله الميثاق
على الذين أوتوا الكتاب فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ
اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْفُرُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]»^(٤).

أما الجدال المنهي عنه فهو «الجدال
بالباطل، والقصد إلى دحض الحق كما في
قوله: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾
[غافر: ٥]»^(٥).

رابعاً: المباهلة.

وهي: «الملاعنة»^(٦)، وهو أن يجتمع
القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله

الإصلاح بينهما؛ ليراجعا إلى ما فيه الألفة
واجتماع الكلمة على ما أذن الله وأمر به، ثم
أخبر جل ثناؤه بما وعد من فعل ذلك فقال:
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ آتِبَعَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾... ولا حد لمبلغ ما سمي
الله ﴿عَظِيمًا﴾ يعلمه سواه!«^(١).

ولعظيم أمر الإصلاح بين الناس أحل
الشارع الحكيم الكذب من أجل ذلك؛ فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس
الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي
خيراً، أو يقول خيراً»^(٢).

ثالثاً: الجدال بالتي هي أحسن.

وهو «دفع المرء خصمه عن إفساد قوله؛
بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه،
وهو الخصومة في الحقيقة»^(٣).

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ
الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ وَقُولُوا أَمَّا بِالذِّمَىٰ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ
إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وليس الجدال خاص بأهل الكتاب! بل
هو عام للكفار والمؤمنين؛ بهدف إحقاق
الحق وإبطال الباطل.

وعن جدال المؤمنين يقول تعالى: ﴿قَدْ

(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤ / ٥٥٢.

(٥) المصدر السابق.

(٦) قال الزمخشري: «ومأخذها من الإبهال وهو
الإهمال والتخلية لأن اللعن والطرود والإهمال
من واو واحد» الفائق في غريب الحديث ١ /
١٤٠.

(١) جامع البيان، الطبري ٩ / ٢٠١، ٢٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٦٩٢،

ومسلم في صحيحه، رقم ٢٦٠٥.

(٣) التعريفات، الجرجاني ص ٧٤.

على الظالم منا»^(١).

الجنة إلا من كان هودًا أو نصاري! دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم، أو من المسلمين، فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم.

وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران من النصاري - بعد قيام الحجّة عليهم في المناظرة، وعتوهم وعنادهم - إلى المباهلة.

فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاكُمْ نَرْسُلْنَا رَسُولَنَا وَنُحَاجَّكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ تَرْتَابِلُونَ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(١١) فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتهم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف! فعند ذلك جنحوا للسلم، وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون؛ فضربها عليهم^(٢).

وهذه المباهلة ليست خاصة مع الكفار والمشركين؛ بل قد يتباهل المسلمون في بعض المسائل، كما دعى ابن عباس رضي الله عنه إلى مباهلته في بعض مسائل الفرائض^(٣).

قال سبحانه وتعالى لنييه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاكُمْ نَرْسُلْنَا رَسُولَنَا وَنُحَاجَّكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ تَرْتَابِلُونَ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(١١) [آل عمران: ٦١].

والمباهلة وسيلة من وسائل رفع الاختلاف بين المختلفين التي ذكرها القرآن الكريم؛ ليتضح للناس المحق من المبطل. قال ابن كثير - مرجحًا لمعنى المباهلة -: «وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جرير عن قتادة، وأبي العالية، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٦) وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ^(٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِقٌ كُمْ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَيْنَ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٨) [الجمعة: ٦-٨].

فهم - عليهم لعائن الله - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٣٣٢.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، ١٠ / ٢٥٥، رقم ١٩٠٢٤، والبيهقي في السنن الكبرى، ٧ / ٦٣٠، رقم ١٥٢٥٠.

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١ / ١٦٧.

خامساً: مقاتلة البغاة:

نعم! فمن وسائل رفع النزاع والاختلاف التي ذكرها القرآن الكريم: مقاتلة الطائفة الباغية التي تخالف المسلمين فتبغي عليهم بالقتال، قال الله سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَتَاءَهُ فَاصِلُهَا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوهَا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

وقد ذكرت هذه الآية وستين من وسائل رفع الخلاف: الإصلاح ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، ثم المقاتلة ﴿فَقْتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ فهو قتال له سببه، وله غايته المحددة المعروفة.

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَإِنْ﴾ إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين، فإن قيل: فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم!؟ نقول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع إلا نادراً، غاية ما في الباب أن الأمر على خلاف ما ينبغي!»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «قوله ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فإن الله سبحانه أمر

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨ / ١٠٤.

النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذا اقتتل طائفتان من المؤمنين: أن يدعوهم إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله، حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم، حتى يفيثوا إلى أمر الله، ويقروا بحكم الله»^(٢).

قال الرازي: «فالواجب على الأمير دفعهم، وإن كان هو الأمير؛ فالواجب على المسلمين منعه بالنصيحة فما فوقها، وشرطه: أن لا يثير فتنة مثل التي في اقتتال الطائفتين أو أشد منهما»^(٣).

هذه هي الوسائل التي هدانا إليها القرآن الكريم -أو غالبها- لرفع الخلاف والنزاع الذي يقع بيننا -نحن المسلمين- وبين الكفار، أو بين المسلمين بعضهم البعض، فطوبى لمن جعل هذا الكتاب العظيم نبراسه وهاديه في السلم والحرب، والصلح والخلاف، والرضا والغضب... الخ، إذن لقد أفلح في الدنيا والآخرة وأنجح.

موضوعات ذات صلة:

الاجتماع، الأخوة، الأمة، العلاقات الاجتماعية، الوحدة

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢ / ٢٩٢، ٢٩٣.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨ / ١٠٤.